الدكتور محمد البهي

التفسير الموضوعي للقرآن الكريم



الناشر
مكتبة وهبة
١٤ ـ شارع الجمهورية ـ عابدين
القاهرة ت : ٩٣٧٤٧٠

اهداءات ٢٠٠٢

أ.د/ مصطفى الصاوى الجوينى

الاسكندرية

الدكتور محمد البهي

التفسير الموضوعي للقرآن الكريم



القرآن في مواجهة المادية

الناشر: مكتبة وهبة
١٤ شارع الجمهورية - بعابدين
القاهرة - ت: ٩٣٦٤٧٠

الطبعة الأولى

رجب ١٣٩٦ هـ

يوليو ١٩٧٦ م

دار غريب للطبـــاعة
١٢ شارع نوبار (لاظوغلى) القاهرة
تليفون : ٢٢٠٧٩

بسم الله الرحمن الرحيم

تفسير سورة الحجر

مقـدمة :

● سورة الحجر من السور المكية . ولها طابع الوحى المكى تعنى بالحديث عن القرآن على أنه موحى به من عند الله فى مواجهة التحدى من المكيين لرسول الله محمد بن عبد الله عليه الصلاة والسلام . وتحدد وضع الكافرين ، وهدفهم فى الحياة وما ينتظرهم من عقاب (الآيات : ١-٥) :

● وتذكر طرفاً من ادعاء هؤلاء الكافرين واتهامهم للرسول صلوات الله عليه ، ورد القرآن على هذا الاتهام ، مع وعد الله بحفظ القرآن بين البشر إلى يوم البعث ، وتؤكد للرسول عليه السلام : أنه ليس وحده الذى ينفرد بمثل هذا الاتهام فى تاريخ الرسالة الإلهية للناس على هذه الأرض من أعداء الله (الآيات : ٦- ١٥) .

● ثم تسوق بعضاً من الدلائل على وحدة الله وتفرده بالعبادة : وهى دلائل من هذا الوجود المادى . . تسوق دلائل خلق السموات والأرض . . وخلق الطبائع التى اختبرت فى طاعة الله ، وهى طبائع ، الإنس والجان (الآيات : ١٦ - ٤٨) .

● وتنقل من تاريخ الرسالة الإلهية : منة الله على بعض رسله : فى إنجائهم من مكائد أعدائهم : وإهلاك معارضيهم ، لتثبت بما تنقله فؤاد الرسول محمد عليه السلام ، كى يستمر فى دعوته فى اطمئنان نفسى ، وفى توكل على الله (الآيات: ٤٩ - ٨٤) . بجانب ما تشير إليه من منة الله على رسول

الله عليه السلام فى توجيهه فى دعوته إلى الصبر والتحمل فى سبيلها (الآيات : ٨٥ – ٩٩) .

* * *

وهكذا : الطابع المكى لوحى الرسالة يتحدد :

(أ) بالحديث عن القرآن ، وتأكيد أنه لله ، وليس لبشر أو ملك .

(ب) وتسجيل بعض ادعاءات ضده ، أو ضد صاحب الرسالة عليه السلام من المعارضين وتفنيد هذه الادعاءات .

(ج) وبالاستشهاد من أحداث التاريخ على أن الطغيان بالمال أو بالقوة ، وعلى أن الترف والفساد فى السلوك ، من عوامل تقويض المجتمع القائم وتغييره. ولن يمارس الطغيان أو الترف إلا كافر بالقيم الإنسانية ومتعصب فى إيمانه بالمتع المادية وحدها .

(د) وبأن الإيمان بالقيم العليا فى حياة الإنسان ، والعمل على تحقيقها من أهم الدوافع إلى نصر الضعفاء على الزعماء الطغاة ، وتمكينهم من السيادة فى المجتمع ولو بعد حين .

(هـ) وبأن الصبر والمثابرة على القدوة الحسنة ، وعلى الحزم وعدم التردد فى الدعوة إلى استمرار السعى نحو تحقيق المستوى الإنسانى فى حياة الإنسان : أساس النجاح على أعداء الإنسانية ، مهما طال الزمن ، ولن يتجاوز طوله جيلا من الأجيال .

* * *

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

الٓر تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱلْكِتَٰبِ وَقُرْءَانٍ مُّبِينٍ (١) رُّبَمَا يَوَدُّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَوْ كَانُوا۟ مُسْلِمِينَ (٢) ذَرْهُمْ يَأْكُلُوا۟ وَيَتَمَتَّعُوا۟ وَيُلْهِهِمُ ٱلْأَمَلُ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ (٣)

تفتتح السورة آياتها — على عادة الوحى المكى — بالقسم ببعض الحروف الهجائية العربية : « آلر » لتؤكد أن ما جاء فيها هو آيات من كتاب الله وقرآنه المبين : « تلك آيات الكتاب وقرآن مبين » (أى هذا الذى يتلى الآن فى هذه السورة ، هو جملة من آيات الكتاب . والكتاب هنا هو هذا القرآن الناصع فى تركيبه ودلالته . والقسم إذن : بالأحرف الثلاثة من الهجاء العربى هو لتنبيه المكيين وإيقاظ الوعى فيهم بأن ما جاء فى سورة الحجر من أنه كتاب من الله ، وفى أنه جزء من القرآن الكريم : لا يختلف فيه أحد . إذ شأنه فى الوضوح والثبات كشأن هذه الأحرف الثلاثة . ا — ل — ر ، فى كونها من أحرف الهجاء العربى . والمنكر له ، وأنه من الله سبحانه وتعالى ، كالمنكر لهذه الأحرف فى أنها من بين ما تقوم عليه الكلمات العربية) . « ربما يود الذين كفروا لو كانوا مسلمين » (ثم تذكر السورة الآن : أن معارضة المعارضين للقرآن والمنكرين لأنه وحى من عند الله ليست أبدية ، بل سيأتى يوم يرغم فيه هؤلاء المعارضون على تمنيهم فى أنهم لو كانوا من قبل مسلمين وآخذين أنفسهم بالطاعة له . وهو يوم الحساب والجزاء : (**ولو ترى إذ المجرمون ناكسوا رءوسهم عند ربهم ربنا أبصرنا وسمعنا ، فارجعنا نعمل صالحاً ، إنا موقنون**) (١) .

(١) السجدة : ١٢ .

مما يدل على أن معارضتهم وإنكارهم كان للهوى .. كان بسبب عدم استطاعتهم التخلص مما ورطوا فيه أنفسهم من طغيان وحب للزعامة ، وحرصهم على البقاءفيما هم فيه) . « ذرهم يأكلوا ، ويتمتعوا ، ويلههم الأمل فسوف يعلمون»(وطالما لم تكن هناك معارضة هؤلاء الكافرين لسبب يرجع إلى ذات القرآن وما جاء فيه من هداية للناس جميعاً ، بل كان لأمور شخصية تعود إلى أنانيتهم وإلى أوضاعهم الاجتماعية : فالموقف منهم ألا تعطى لهم أهمية وألا يؤمل كثيراً فى إيمانهم بعد تغلبهم على الرواسب الاجتماعية التى تملك عليهم نفوسهم وتوجيههم والأجدر أن يتركوا وشأنهم .. أن يتركوا واسترسالهم فى الاستمتاع بمتع هذه الحياة المادية متعة الأكل ، ومتعة الشهوة شهوة الزعامة وشهوة القوة .. وشهوة الطغيان وشهوة التمادى فى العناد والكفر ، كمايتركون وأمرهم فى تخيلات الأمل القريب والبعيد .

فهؤلاء قد أوقفوا لديهم منطق العقل وحجته ، واستخدموا فى سلوكهم وفى تفكيرهم وفى نظرتهم إلى الحياة : ما دون العقل والمنطق ، وهو غرائز الحيوانية فيهم .

وفى نهاية الاستمتاع سيعلمون حتما أن ما استمتعوا به لم يكن إلا فترة من خداع مهما طال أمره : **(ويوم يحشرهم كأن لم يلبثوا إلاساعةمن النهار يتعارفون بينهم ، قد خسر الذين كذبوا بلقاء الله ، وماكانوا مهتدين)** (١) وهذه الآية تحدد : أن هدف الكافرين برسالة الله هوهدف مادى ، هو الاستمتاع بالمتع المادية بعد الحصول عليها والسعى من أى طريق لتحصيلها.

---

(١) يونس : ٤٥ .

وليس هدفاً معنوياً إنسانياً ، أو روابط إنسانية بينه وبين غيره . وإنما الذى يعنيه فى الدرجة الأولى .. والأخيرة : الأمر المادى وحده ... ما فى هذه الحياة الدنيا مما تتطلبه غرائز الحيوانية فى الإنسان .

وهكذا : تبدو الصلة واضحة بين الكفر والأنانية ..

وبين الكفر والمادية . .

وبين الكفر والنفعية والمصلحية .

وطالما أن الحصول على المتع المادية هدف الكفر ، فالكافر لايعنيه أى طرق يسلكه طالما يصل به إلى تحصيل هذه المتع المادية :

يسلك طريق النفاق ..

ويسلك طريق الانتهازية ..

ويسلك طريق النفعية ، ولو كانت هذه المنفعة سبباً فى ضرر آخرين .

وهكذا : الكفر عدو الإنسانية .

وعدو الأخلاق .

وعدو الله كذلك) .

وَمَآ أَهْلَكْنَا مِن قَرْيَةٍ إِلَّا وَلَهَا كِتَابٌ مَّعْلُومٌ ﴿٤﴾ مَّا تَسْبِقُ مِنْ أُمَّةٍ أَجَلَهَا وَمَا يَسْتَـْٔخِرُونَ ﴿٥﴾

وعقاب الله للمجتمعات المادية — وهى تلك المجتمعات التى تكفر بالله وباليوم الآخر ، وتؤثر الدنيا بالحب وبكل ما لها من نشاط — بالفناء والتغيير ، يخضع لأجل محدد منه جل شأنه ، يتم عنده بحيث لايسبقه ولايتأخر عنه .

ولذا فليس من مهمة الرسول عليه السلام –أى رسول – أن يستعجل لمعارضيه عذاب الله . (**فاصبر كما صبر أولوا العزم من الرسل ، ولا تستعجل لهم ، كأنهم يوم يرون ما يوعدون لم يلبثوا إلا ساعة من نهار ، بلاغ ، فهل يهلك إلا القوم الفاسقون**) (١) وبعد استعجال العذاب للكافرين يوصى القرآن الرسول محمداً عليه الصلاة والسلام : « وما أهلكنا من قرية إلا ولها كتاب معلوم » (أى أجل محدد فى علم الله سبحانه ، فهو مكتوب ومسجل فى علمه) «ما تسبق من أمة أجلها ، وما يستأخرون» (ومن أجل تحديد أجل العقاب فى علم الله لا يتقدم هذا العقاب بالنسبة لمجموعة من الكافرين المعارضين ، ولا يتأخر كذلك عن موعده المسجل فى علم الله . ومن هنا ليست هناك فائدة ترجى من دعاء الرسول بأن يعجل الله عقابه لمعارضيه . فهذا التحديد وضع لاختبار المعارضين ، كما وضع لاختبار صاحب الدعوة وتحمله وصبره فى سبيل دعوته إلى ما أرسل به من قبل ربه إلى قومه ، وإلى الناس جميعاً ، فإن انتهى الأجل وقع العقاب بعد الإنذار ، وأثيب الرسول على صبره على معارضة معارضيه وتحديهم . وأصحاب الدعوة إلى رسالة الله بعد الرسول عليه السلام لا يثابون على دعوتهم إلا بمقدار صبرهم على تحديات معارضيهم ، فإن هم التجأوا إلى الدعاء إلى الله بتخليص أنفسهم من أعدائهم كان ذلك منهم آية على استعجالهم العذاب ، وبالتالى على ضعف جهدهم فى سبيل الدعوة) .



(١) الأحقاف : ٣٥ .

وَقَالُوا۟ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِى نُزِّلَ عَلَيْهِ ٱلذِّكْرُ إِنَّكَ لَمَجْنُونٌ ﴿٦﴾ لَّوْ مَا تَأْتِينَا بِٱلْمَلَـٰٓئِكَةِ إِن
كُنتَ مِنَ ٱلصَّـٰدِقِينَ ﴿٧﴾ مَا نُنَزِّلُ ٱلْمَلَـٰٓئِكَةَ إِلَّا بِٱلْحَقِّ وَمَا كَانُوٓا۟ إِذًا مُّنظَرِينَ
﴿٨﴾ إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا ٱلذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَـٰفِظُونَ ﴿٩﴾ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ فِى شِيَعِ
ٱلْأَوَّلِينَ ﴿١٠﴾ وَمَا يَأْتِيهِم مِّن رَّسُولٍ إِلَّا كَانُوا۟ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ ﴿١١﴾ كَذَٰلِكَ نَسْلُكُهُۥ
فِى قُلُوبِ ٱلْمُجْرِمِينَ ﴿١٢﴾ لَا يُؤْمِنُونَ بِهِۦ ۖ وَقَدْ خَلَتْ سُنَّةُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿١٣﴾ وَلَوْ فَتَحْنَا
عَلَيْهِم بَابًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ فَظَلُّوا۟ فِيهِ يَعْرُجُونَ ﴿١٤﴾ لَقَالُوٓا۟ إِنَّمَا سُكِّرَتْ أَبْصَـٰرُنَا
بَلْ نَحْنُ قَوْمٌ مَّسْحُورُونَ ﴿١٥﴾

وتأخذ السورة الآن فى الإخبار ببعض ادعاءات المكيين المعارضين ضد الرسول عليه السلام : « وقالوا يا أيها الذى نزل عليه الذكر : إنك لمجنون » (أى رمى هؤلاء الكافرون رسول الله صلى الله عليه وسلم بسبب نزول القرآن عليه بأنه مجنون . فالقرآن وما جاء فيه من هداية الله يعتبر تقويضاً لما كانوا يعتقدون فى أصنامهم ، وفى شركهم بالله ، كما كان يعتبر نقداً لكثير من عاداتهم وتقاليدهم ، ومسلكهم فى الحياة ، وفى الروابط فيما بينهم. فقد جاء ببيان ضلالهم فى الاعتقاد ، وخطئهم وأنانيتهم فى السلوك ، وظلمهم فى معاملة بعضهم البعض ، واستعلاء قويهم على ضعيفهم ، فكيف يجرؤ واحد من قريش — وهو المصطفى عليه السلام — أن يواجه قومه بأنهم على باطل ، وبالأخص فيما يتصل باعتقادهم وشركهم ؟ . وهو ذا يواجه قومه بذلك .

يواجه أولا وبالذات : أصحاب الزعامة فيهم . وهم أولئكم الكهان . وهم أصحاب المصلحة فى وضعهم الاجتماعى القائم ، وأصحاب السلطة الدينية بينهم وأصحاب الحل والحرمة فى تصرف الأتباع والضعفاء .

إنه عليه السلام إذ يواجههم بما فى القرآن وبما جاء فى الوحى المكى خاصة ، مما يحمل الأتباع والضعفاء ضد سادتهم وزعمائهم ، لابد أن يكون ــ فى نظرهم طبيعياً فى تفكيره ، وفى شعوره بالمسئولية الشخصية نحو وقاية نفسه من الأذى والضرر ، ومن المكائد ضده التى ربما تؤدى إلى هلاكه .

وفى ندائهم له بأنه الذى نزل عليه الذكر ، أى القرآن ، مايفيد : أن اتهامهم إياه بالجنون ، إنما هو بسبب القرآن ، ودعوته الناس للإيمان بما جاء فيه ضد الشرك والوثنية المادية ، وضد ادعاء علم الغيب عن طريق الشياطين.

والوثنية المادية ، وادعاء علم الغيب عن طريق شياطين الجن هما الركيزتان اللتان كانت تقوم عليهما سلطة الكهان ورياسة الزعماء فى مكة .

ولذا عنى الوحى المكى عناية خاصة بتوضيح بطلان المادية ووثنية الشرك وخرافة استراق السمع لعلم الغيب عن طريق شياطين الجن ، وفيما يقوله الله تعالى فى آخر سورة الجن : (عالم الغيب فلا يظهر على غيبه أحداً . إلامن ارتضى من رسول (ملك . . أو إنسان) فإنه يسلك من بين يديه ومن خلفه رصداً . ليعلم أن قد أبلغوا رسالات ربهم ، وأحاط بما لديهم ، وأحصى كل شىء عددا) (١) . يؤكد أن علمه سبحانه كان بعيداً كل البعد عن متناول أى موجود إلا من اصطفاه الله بالرسالة . ويستحيل أن تكون شياطين الجن ممن اصطفاهم الله وآثرهم بعلمه .

« لو ما تأتينا بالملائكة ، إن كنت من الصادقين » (يستمر هؤلاء المكيون فى توجيه الخطاب إلى الرسول محمد عليه السلام ، بعد أن أنكروا عليه أن

---

(١) الجن : ٢٦ — ٢٨ .

يكون عادياً أو طبيعياً ، عندما أعلن دعوتهم إلى الإيمان بالقرآن ، والقرآن فيه مافيه مما يتصل بهم ، مما لايرضون عنه ، ومايقوض عليهم رياستهم ومجتمعهم . ويقولون له الآن : إنك غير صادق فيما تدعيه من أنك رسول الله ، فالله لايرسل بشراً إلى الناس ، وإنما يرسل إليهم من القوى الخفية التى لاترى . . يرسل إليهم ملكا ، وهم فى حجتهم هذه يستندون إلى مايدعونه هم بالنسبة لأنفسهم فى صلتهم بعلم الغيب . فكانوا يدعون أن القوى الخفية — وهى شياطين الجن — تأتى إليهم بعلم الله فى السماء . وهم بذلك يقيسون وضعه عليه السلام على وضعهم هم . وطالما الرسول صلوات الله عليه ينكر عليهم علم الغيب ، فهم كذلك ينكرون علم الغيب عن طريق الوحى ، فهم بشر ، وهو بشر مثلهم . والوضع إذن الذى يجب أن يكون فى نظرهم ويقوم حجة على الصلة بالله سبحانه : أن يكون الرسول ملكا وليس بشراً) « ما ننزل الملائكة إلا بالحق وما كانوا إذاً منظرين » (وكان رد القرآن عليهم ذا شقين :

الشق الأول : أن الوحى إلى الرسول محمد عليه السلام جاء به ملك ، وهو جبريل عليه السلام . والملك لاينزل إلا بالحق وإلا بالصدق .

فالقرآن الذى نزل به جبريل هو حق وصدق من عند الله . ويستحيل أن تنزل به الشياطين ، كما كنتم تدعون أنتم بالنسبة لكهانكم (**وما تنزلت به الشياطين ، وما ينبغى لهم وما يستطيعون . إنهم عن السمع لمعزولون**) (١) .

الشق الثانى : أن الملك لو أرسل بالقرآن مباشرة إلى الناس جميعاً — دون اصطفاء واحد منهم يوحى به إليه — لوجب أن يكون منظوراً ومشاهداً

---

(١) الشعراء : ٢١٠ — ٢١٢ .

ومرئياً لهم ، حتى يمكن أن يدعوهم لما جاء به . وكونه منظوراً ومشاهداً ضد طبيعته ، هو ، فالملك من القوى الخفية التي لاترى ، وقد عبر الله عن الملائكة فى سورة الصافات بالجنة — أى القوى الخفية التى لاترى — بقوله : (**وجعلوا بينه وبين الجنة نسباً ، ولقد علمت الجنة أنهم لمحضرون**) (١) فجعلهم من القوى المستترة التى لاتشاهد .

وفى هذه الآية يحكى الله سبحانه نفس ادعاء المكيين السابق على هذه الآية فى السورة نفسها فى قوله تعالى : (**فاستفتهم ألربك البنات ولهم البنون . أم خلقنا الملائكة إناثاً وهم شاهدون**) (٢) وهكذا : إرسال الملك رسولا إلى الناس جميعاً يتنافى مع طبيعته ، وهنا كان اختيار الله لرسوله من البشر ، يوحى إليه رسول ملك بإذن الله . وإذاً ما يطلبه مشركو مكة ، وزعماؤهم أو أصحاب السلطة فيهم من محمد عليه السلام لايدل على نظرة صائبة ، وإنما يعبر عن عناد فقط) .« إنا نحن نزلنا الذكر ،وإنا له لحافظون »(أى وتأكيداً لنزول القرآن من عند الله ولنسبته إليه جل جلاله ، دون نسبته إلى رسوله عليه السلام ، يعلن المولى سبحانه هنا بأنه حافظ له من الضياع إلى يوم البعث . فلا يخشى عليه خاش ، مهما تألبت قوى الشر ضده ، ومهما طمست معالم الإنسانية فى الأرض ، وحلت محلها أركان المادية والجاهلية . ومعنى كون الله حافظاً له : أنه سيوفق مجموعة من الناس على أى نحو كان شأنها من القلة والضآلة ، للإيمان به والدعوة إليه . فلا ينزع الإيمان به أبداً حتى يوم الدين ووعد الله بحفظ كتابه تحد منه سبحانه لزعماء الجاهلية والوثنية المادية على مدى العصور والأجيال . وليس معنى حفظ الله

---

(١) الصافات : ١٥٨ .

(٢) الصافات : ١٤٩ — ١٥٠ .

لكتابه : أن يبقى فى صدور بعض المؤمنين به دون دعوة إليه . . أوأن يبقى بين دفتى المصحف دون اطلاع أحد عليه ، والأخذ فى التعريف به . وإنما – كما ذكر – بقاء ضيائه دالا على هداية الله فى توجيه نفر من البشر ، كثر عددهم أو قل).« ولقد أرسلنا من قبلك فى شيع الأولين . وما يأتيهم من رسول إلا كانوا به يستهزئون»(وموقف التحدى والمعارضة ، وموقف السخرية والادعاء والاتهام الذى يقفه منك –صلوات الله عليك – زعماء مكة وأصحاب التوجيه فيهم هو موقف منتظر منهم . لأنه يعود إلى قضية أساسية . وهى قضية إبعاد هؤلاء الرؤساء والزعماء من قيادة المجتمع وعن التوجيه والاستغلال فيه ، لأنه طالما يتضح أن توجيههم يقوم على تحقيق مصالح شخصية ومادية ، دون أن يحقق العدل فى ذاته ، ودون أن يشيع الاعتبار البشرى والمساواة فيه بين أفراد الأمة من غير تمييز ، فليس هناك فيه مكان لزعامتهم ورياستهم ، عندما تنتشر دعوة الرسالة ، وسيحل محل توجيههم : هدى الله ، بعد أن يتحول مجتمعهم إلى مجتمع مؤمن بالله وحده . وهذه القضية الأساسية هى قضية عامة وتنطوى على مبدأ عام لايتخلف ، ويمثل إرادة الله فى كونه . وهى قضية تحويل المجتمعات وتغييرها .

فقيادة مجتمع الهداية والنور لاتصلح لقيادة مجتمع الظلام والمادية ، وكذلك العكس .

ولذلك لابد من تغيير القيادة .

وبتغييرها يتغير المجتمع .

وقد سجل التاريخ على ممر الأجيال وفترات الرسالة الإلهية : أن كل رسول أرسل فيما مضى لقوم من أقوام البشر لقى المعارضة والتحدى ، وكذبه معارضوه من الزعماء،وسخروا منه ، واستهزأو ابدعوته . وليس إذن خلاف

المألوف ، وغريباً فى تطور الأحداث : ألا يلقى الرسول محمد عليه السلام مالقيه أسلافه السابقون عليه). «كذلك نسلكه فى قلوب المجرمين. لايؤمنون به وقد خلت سنة الأولين » (إذ المواجهة والإنكار أمر متمكن فى نفوس هؤلاء الزعماء المعارضين ، وهم مجرمون فى حق أنفسهم ، وأتباعهم من الضعفاء. ولذا لايؤمنون بما يأتى به رسولهم . لأن مايأتى به ضد مصالحهم ومنافعهم الشخصية فى هذه الحياة ، وضد أوضاعهم الاجتماعية . وسنة الحياة فى المجتمعات السابقة تعطى الدليل على أن التحدى والإنكار والمعارضة من خصائص الزعماء فى المجتمعات أن طولبوا بإصلاح فى علاقات الأفراد بعضهم ببعض ، وبمساواة فى الاعتبار البشرى ، وبعدم الظلم فى التعامل ، وتجنب المنكر فى السلوك ، والغلظة فى المعاملة) .« ولو فتحنا عليهم باباً من السماء فظلوا فيه يعرجون . لقالوا : إنما سكرت أبصارنا ، بل نحن قوم مسحورون» (ومهما قدم لهؤلاء الزعماء المطبوعين على الإجرام والتحدى لرسالة التحول إلى مستوى الإنسانية ، وهى رسالة الله ، من مزايا تعود عليهم ، إن هم اتبعوا خطوط هذه الرسالة ، وآمنوا بها وبالله وحده ، ومهما لمسوا هذه المزايا وأحسوا بها فى حياتهم مع أقوامهم إن هم شاركوهم الهداية ، لأنكروا التعرف عليها والاعتراف بها . حتى لو فتح لهم الطريق إلى السماء وأنسوا الصعود فيه مرحلة بعد أخرى لادعوا : أنهم قد أسىء إليهم بتمكينهم فيه ، وأنهم قد جمدت أبصارهم فعادوا لايرون بها ، أو أنهم سحروا فخيل إليهم ماليس بواقع . واقعاً : هم منكرون لكل تغيير مهما انطوى هذا التغيير على المصلحة لهم ولغيرهم) .

* * *

وَلَقَدْ جَعَلْنَا فِي السَّمَاءِ بُرُوجًا وَزَيَّنَّاهَا لِلنَّاظِرِينَ (١٦) وَحَفِظْنَاهَا مِن كُلِّ
شَيْطَانٍ رَّجِيمٍ (١٧) إِلَّا مَنِ اسْتَرَقَ السَّمْعَ فَأَتْبَعَهُ شِهَابٌ مُّبِينٌ (١٨) وَالْأَرْضَ
مَدَدْنَاهَا وَأَلْقَيْنَا فِيهَا رَوَاسِيَ وَأَنبَتْنَا فِيهَا مِن كُلِّ شَيْءٍ مَّوْزُونٍ (١٩) وَجَعَلْنَا لَكُمْ فِيهَا
مَعَايِشَ وَمَن لَّسْتُمْ لَهُ بِرَازِقِينَ (٢٠) وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلَّا عِندَنَا خَزَائِنُهُ وَمَا نُنَزِّلُهُ
إِلَّا بِقَدَرٍ مَّعْلُومٍ (٢١) وَأَرْسَلْنَا الرِّيَاحَ لَوَاقِحَ فَأَنزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَسْقَيْنَاكُمُوهُ
وَمَا أَنتُمْ لَهُ بِخَازِنِينَ (٢٢) وَإِنَّا لَنَحْنُ نُحْيِي وَنُمِيتُ وَنَحْنُ الْوَارِثُونَ (٢٣) وَلَقَدْ عَلِمْنَا
الْمُسْتَقْدِمِينَ مِنكُمْ وَلَقَدْ عَلِمْنَا الْمُسْتَأْخِرِينَ (٢٤) وَإِنَّ رَبَّكَ هُوَ يَحْشُرُهُمْ إِنَّهُ
حَكِيمٌ عَلِيمٌ (٢٥)

بعد أن قدمت سورة الحجر هنا وضع القرآن.. وموقف المعارضين منه، من أولئكم الوثنيين الماديين بمكة . . وبعد أن أوضحت أن مثل هذا الموقف ليس خاصاً بالقرآن ، ولا بالرسول محمد عليه السلام ، بل هو موقف تكرر فى التاريخ مع رسل آخرين قبله : أخذت فى سرد الأدلة الكونية على وحدانية الله سبحانه وتعالى . ووحدة الألوهية هى الأساس الرئيسى فى تغيير المجتمع من وضع مادى إلى وضع إنسانى ، أو من وضع جاهلى إلى وضع إسلامى. وهى تلك القضية التى عنى بها الوحى المكى فى سوره جميعها : الطويلة، والقصيرة منها ، فى مواجهة الشرك والمادية . وتسوق السورة قبل أن تصل إلى قضية التكليف بالطاعة للإنس والجن على السواء ، أربعة أدلة كونية على وحدة الخالق جل وعلا ، وعلى استحقاقه العبادة وحده ، من غير ند ولا شريك .

تسوق السماء ، وتركيبها ، وحفظها من التخريب أو سوء النظام . . وتسوق الأرض وتعبيدها لإقامة الإنسان عليها وتحصيل معاشه فيها . . كما تسوق الرياح وأثرها فى سقى الإنسان وتلقيح النبات من أجله . وأخيراً

تسوق قدرة الله على الإحياء والإماتة وعلمه الدقيق بجماعات الإنسان فى قدومهم إلى الحياة وخروجهم منها منذ آدم إلى يوم البعث وجمعهم جميعاً يوم الحشر «ولقد جعلنا فى السماء بروجاً وزيناها للناظرين» (فما فى السماء من نجوم وكواكب ، ومما بينها من نظام ، وجمال ، وتنسيق وعدم نشاز ، وما لحركة بعضها حول بعض فى منازلها وأبراجها من تأثير على حياة الإنسان ومعيشته على الأرض : يدل على وحدة الصانع والخالق والمدبر ، كمايدل على استحقاقه العبادة وحده)« وحفظناها من كل شيطان رجيم» (فإذا أضيف إلى إبداع السموات ، وإلى جمالها ونظامها وأثرها على الطبيعة البشرية على الأرض حفظها بحكم طبيعتها من كل مصدر للتخريب ، أو التشويه أو الإخلال بما بينها من تنسيق : أعطى ذلك أيضاً مزيداً من الدلالة على وحدة الخالق، وهو الله سبحانه وتعالى)«إلا من استرق السمع فأتبعه شهاب مبين »(وأية محاولة لمصدر من مصادر التخريب الخارجية تتجه للإخلال بالتنسيق بين كواكب السماء تلقى فوراً الرد الذاتى ، من هذه الكواكب بحكم طبيعتها . وهو رد يكشف كشفاً واضحاً عن انتماء عنصر التخريب إلى قوى الظلام اللعينة الخارجة . ويعنى هذا الرد الذاتى للكواكب ضد قوى الشر خارجها : أن الله عندما أعلن حفظها من كل مصدر للتخريب : إنه جل جلاله أعدها إعداداً ذاتياً وطبيعياً ضد الخلل وعدم الانسجام فنظامها باق لا يختل أبداً ، وليس هناك فى الوجود ما يخل بنظامها وبالتنسيق فى ترابطها فى حركاتها وأبراجها « والأرض مددناها وألقينا فيها رواسى ، وأنبتنا فيها من كل شىء موزون . وجعلنا لكم فيها معايش ، ومن لستم له برازقين »(وتجىء الآن الأرض بعد السموات ، كدليل على وحدة الله فى ألوهيته ، فقد مد الله الأرض وبسطها ، وأرسى فيها الجبال وثبتها لتحفظ عليها توازنها عند حركتها فى مدارها ، وأنبت فيها كل ما يصلح لمعايش الناس وأنعامهم فى

اعتدال وحكمة . وقد جاء خلق الأرض على هذه الصورة ، ولنفس الغاية فى قوله تعالى أيضاً : (والأرض بعد ذلك دحاها (أى بسطها على شكل بيضة فى التكوير) **أخرج منها ماءها ومرعاها ، والجبال أرساها، متاعاً لكم ولأنعامكم**) (١) . وإذا كانت السماء وكواكبها مصدر ضوء وإشعاع فى حياة الإنسان ، ومصدر جمال وزينة له ، ومصدر تغيير فى فصول الزمن الذى يمر عليه : فالأرض مقام لسكناه فى غير اهتزاز واضطراب ، ومصدر لما يتقوت هو منه ، ولما يحتاج إليه من أنعام فى حياته على هذه الأرض . ولو لم يكن الخالق للأرض واحداً لما أمن الإنسان اضطراب السكنى عليها بسبب إخلال التوازن فى حركتها ، مما يعود إلى الاختلاف بين الآلهة العديدة على فرض مشاركتها فى الخلق) «وإن من شىء إلا عندنا خزائنه ، وماننزله إلا بقدر معلوم » (وما يقتات منه الإنسان على هذه الأرض ، وما تأكل أنعامه ، هو من فضل الله وفيضه . فمنه وعنده مصدر العطاء . وما يفيض به من مصدر عطائه يفيض به حسب تقدير خاص ، وهو حاجة الناس ، ومن ليسوا له برازقين من الأنعام) « وأرسلنا الرياح لواقح ، فأنزلنا من السماء ماء فأسقيناكموه وما أنتم له بخازنين » (والرياح وآثارها على حياة الإنسان وما تحمله من سحب الأمطار ، ولواقح النبات هى دليل كونى ثالث تسوقه السورة هنا على وحدة الله جل جلاله فى ألوهيته .

فعن طريق الرياح تدفع السحب وهى محملة بالماء لتلقى به فى مواطن الحاجة إلى المياه للسقى ورى الزرع والنبات .

وعن طريق الرياح يلتقى الذكر بالأنثى عند الإثمار : (**سبحان الذى**

---

(١) النازعات : ٣٠ - ٣٣

خلق الأزواج كلها مما تنبت الأرض ، ومن أنفسهم ، ومما لا يعلمون) (١) وشأن الماء فى أن مصدره الله سبحانه وليس الإنسان ، كشأن ما تخرجه الأرض بإذن ربها وهو من فيضه وفضله). «وإنا لنحن نحيي ونميت ، ونحن الوارثون . ولقد علمنا المستقدمين منكم ، ولقد علمنا المستأخرين . وإن ربك هو يحشرهم ، إنه حكيم عليم » (وبالإضافة إلى الأدلة الكونية الثلاثة السابقة على وحدانية الله فى ألوهيته ، تذكر السورة : أن الوجود كله يخضع للتغيير ، ما عدا موجود واحد هو باق لا يتغير ، وهو الله جل شأنه. فلا يشاركه فى عدم التغيير موجود آخر . ولذا هو وحده صاحب التغيير للأجيال العديدة من البشر : بالحياة وبالموت ، والوارث لها : أى الباقى بعدها. ولذا فهو كذلك يعلم الأجيال فى قدومها إلى الوجود ، وفى تتابعها فيه . ولذا أيضاً هو الذى يجمع السابق واللاحق فى وجوده يوم الحشر ، لا يتخلف منهم أحد . وطالما أنه وحده الموجود الذى لا يتغير فهو الأحق بوحدة الألوهية ، وبعبادة ما عداه له من الموجودات المتغيرة : السابقة واللاحقة فى وجودها على السواء .

وإذا كان الله خلق السموات والأرض ، وجعل الرياح لواقح لمنفعة الإنسان ولمعيشته على هذه الأرض ، وربط بينها جميعاً فى إتقان ودقة فهو الحكيم .

وإذا كان هو وحده الذى لا يتغير ، وما عداه متغير ومردد بين الحياة والموت . .

وإذا كان هو سبب التغيير : يعلم من سيأتى ، ومن سيجىء بعد ، فهو العليم المحيط بعلمه كل شىء) .

---

(١) يس : ٣٦.

وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ مِن صَلْصَٰلٍ مِّنْ حَمَإٍ مَّسْنُونٍ ﴿٢٦﴾ وَٱلْجَآنَّ خَلَقْنَٰهُ
مِن قَبْلُ مِن نَّارِ ٱلسَّمُومِ ﴿٢٧﴾ وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ إِنِّى خَٰلِقٌۢ بَشَرًا مِّن صَلْصَٰلٍ
مِّنْ حَمَإٍ مَّسْنُونٍ ﴿٢٨﴾ فَإِذَا سَوَّيْتُهُۥ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِى فَقَعُوا۟ لَهُۥ سَٰجِدِينَ ﴿٢٩﴾
فَسَجَدَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ كُلُّهُمْ أَجْمَعُونَ ﴿٣٠﴾ إِلَّآ إِبْلِيسَ أَبَىٰٓ أَن يَكُونَ مَعَ
ٱلسَّٰجِدِينَ ﴿٣١﴾

وفى عقب الأدلة الكونية على وحدانية الله فى الألوهية تذكر سورة الحجر قصة الشر ومصدره فى العالم وقصة المخلوقات التى امتحنها الله فى طاعته، تذكر المخلوقات التى تؤنس وتعهد . . والأخرى التى تستتر ولا تعرف . . تذكر الإنسان . . والجان . . وتوضح مصدر العصيان وهو إبليس ومصير المطيع والعاصى من نوعى الإنس والجن، بعد الحياة الدنيا وفى مرحلة الآخرة: «ولقد خلقنا الإنسان من صلصال من حمأ مسنون» (والصلصال هو الطين اليابس الذى له رنين وصوت. والحمأ هو الطين الأسود المتغير، والمسنون هو المصور والمصبوب. أى صورنا هيكل — ذلك المخلوق المعهود — من طين يابس طال اختلاطه بالماء حتى تغير واسود لونه) «والجان خلقناه من قبل من نار السموم» (وقبل خلق الإنسان من طين خلقنا ذلك المخلوق الآخر الذى يقابله — وهو الجن أو المستتر غير المعهود والمعروف — من نار السموم. أى من النار الصافية التى لا دخان فيها.

وهكذا: طبيعة الإنسان غير طبيعة ما عداه، مما يأخذ اسم الجن.

طبيعة الإنسان فى أصلها ترابية وطبيعة الجن نارية.

وإذا تميز التراب بالثقل والرسوب والانجذاب نحو الأرض فالنار تتميز

بالخفة والارتفاع نحو السماء . والطبيعتان إذن طبيعتان متقابلتان تماماً) ، «وإذ قال ربك للملائكة. إنى خالق بشراً من صلصال من حمأ مسنون . فإذا سويته ونفخت فيه من روحى فقعوا له ساجدين» (يطلب القرآن هنا من الرسول عليه السلام أن يذكر للناس ما امتحن به عباده فى طاعته من الجنس غير المعهود ، وهو الجنس المتخفى .إذطلب إلى الملائكة أن تسجدللإنسان، بعد أن يتم خلقه . أى بعد أن يضيف سبحانه إلى مادته الترابية : جوهره ، وهو روح الله فيه ، وهو العقل الذى يميزه به عما عداه فى الكون كله) «فسجد الملائكة كلهم أجمعون . إلا إبليس أبى أن يكون مع الساجدين»(وقد أطاعت الملائكة كلها أمر ربها وسجدت للإنسان تكريماً له ، وامتثالا لما أمرت به . عدا واحداً منها وهو الذى أصبح له اسم إبليس بعد عصيانه،فإنه امتنع عن السجود واستكبر ، متصوراً : أن مادته التى خلق منها ، وهى النار أشرف من تلك التى خلق منها الإنسان ، وهى الطين والصلصال: ونسى أن الإنسان لم يجعل من مادة فقط بل تميز بالروح كذلك عنها) .

* * *

قَالَ يَٰٓإِبْلِيسُ مَا لَكَ أَلَّا تَكُونَ مَعَ ٱلسَّٰجِدِينَ ﴿٣٢﴾ قَالَ لَمْ أَكُن لِّأَسْجُدَ لِبَشَرٍ
خَلَقْتَهُۥ مِن صَلْصَٰلٍ مِّنْ حَمَإٍ مَّسْنُونٍ ﴿٣٣﴾ قَالَ فَٱخْرُجْ مِنْهَا فَإِنَّكَ رَجِيمٌ ﴿٣٤﴾ وَإِنَّ عَلَيْكَ
ٱللَّعْنَةَ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلدِّينِ ﴿٣٥﴾ قَالَ رَبِّ فَأَنظِرْنِىٓ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ ﴿٣٦﴾ قَالَ فَإِنَّكَ مِنَ
ٱلْمُنظَرِينَ ﴿٣٧﴾ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْوَقْتِ ٱلْمَعْلُومِ ﴿٣٨﴾ قَالَ رَبِّ بِمَآ أَغْوَيْتَنِى لَأُزَيِّنَنَّ لَهُمْ
فِى ٱلْأَرْضِ وَلَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٣٩﴾ إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ ٱلْمُخْلَصِينَ ﴿٤٠﴾ قَالَ هَٰذَا
صِرَٰطٌ عَلَىَّ مُسْتَقِيمٌ ﴿٤١﴾ إِنَّ عِبَادِى لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَٰنٌ إِلَّا مَنِ ٱتَّبَعَكَ
مِنَ ٱلْغَاوِينَ ﴿٤٢﴾ وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمَوْعِدُهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٤٣﴾ لَهَا سَبْعَةُ أَبْوَٰبٍ لِّكُلِّ بَابٍ
مِّنْهُمْ جُزْءٌ مَّقْسُومٌ ﴿٤٤﴾ إِنَّ ٱلْمُتَّقِينَ فِى جَنَّٰتٍ وَعُيُونٍ ﴿٤٥﴾

ٱدْخُلُوهَا بِسَلَٰمٍ ءَامِنِينَ ﴿٤٦﴾ وَنَزَعْنَا مَا فِى صُدُورِهِم مِّنْ غِلٍّ إِخْوَٰنًا عَلَىٰ سُرُرٍ
مُّتَقَٰبِلِينَ ﴿٤٧﴾ لَا يَمَسُّهُمْ فِيهَا نَصَبٌ وَمَا هُم مِّنْهَا بِمُخْرَجِينَ ﴿٤٨﴾ * نَبِّئْ عِبَادِىٓ
أَنِّىٓ أَنَا ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٤٩﴾ وَأَنَّ عَذَابِى هُوَ ٱلْعَذَابُ ٱلْأَلِيمُ ﴿٥٠﴾

« قال : يا إبليس مالك ألا تكون مع الساجدين ؟. قال : لم أكن لأسجد لبشر خلقته من صلصال من حمأ مسنون » (وقد صرح إبليس بما تصوره من سبب يمنعه من السجود لآدم كأول إنسان ، عندما سأله ربه عن ذلك السبب المانع : وهو أن آدم خلق من مادة ترابية ، بينما هو كجان خلق من نار . وقد أخطأ فيما تصوره لأن آدم كأول إنسان ، إن خلق أولا من تراب ، لكنه أودع فيه بعد ذلك : روح الله ، وروح الله فى الإنسان هى العقل الذى يميزه به عن بقية الموجودات ، وبذلك أصبح الإنسان مكرماً وفى أعلى مستوى لوجود المخلوقات ، بعد أن تم خلقه وتصويره) « قال : فاخرج منها فإنك رجيم . وإن

عليك اللعنة إلى يوم الدين » (وعلى أثر خطأ إبليس وعصيانه ربه فى أنه لم يسجد لآدم كما أمر بالسجود له : جازاه الله على عصيانه هذا بإخراجه ملعوناً ومطروداً من الجنة إلى الأرض . كما عاقب آدم كذلك بعد أن عصى ربه فى أن أكل من الشجرة التى منعه هو وحواء من الاقتراب منها ، بإخراجه من الجنة إلى الأرض . وبذلك أصبح الإنسان خارج الجنة ، وأصبح إبليس أيضاً خارج الجنة ، وكلاهما عدو للآخر ، إلى يوم البعث والجزاء الأخروى . ووجودهما على الأرض هو وجـــود متخاصمين) « قال : رب فأنظرنى إلى يوم يبعثـــون . قال : فإنك من المنظرين . إلى يوم الوقت المعلوم » (ووجود إبليس خارج الجنة منذ أن طرد ولعن من ربه .. إلى يوم البعث كان استجابة من الله سبحانه لما طلب منه . أما وجود الإنسان على هذه الأرض إلى يوم البعث كذلك فلاختبار الإنسان فى أجياله العديدة فى طاعة الله فى هدايته ورسالة الرسول إليهم) « قال : رب بما أغويتنى لأزينن لهم فى الأرض ولأغوينهم أجمعين . إلا عبادك منهم المخلصين » (وما طلبه إبليس من ربه من أن ينظره الله ويؤخره فى الإقامة على هذه الأرض طوال فترة اختبار الإنسان فى أجياله المتوالية إلى يوم البعث ، إنما هو لكى يباشر غوايته وإضلاله ، وفتنته للناس . إذ هو ، أى إبليس ، يعتقد أنه يستطيع إغواء الكثرة من الناس ، وأنه لا ينجو من عبثه وإضلاله سوى أولئكم الذى تحصنوا بالإيمان بالله وحده واستقاموا فى طاعته) « قال : هذا صراط على مستقيم . إن عبادى ليس لك عليهم سلطان إلا من اتبعك من الغاوين » (وعندما يستجيب الله لطلب إبليس فى التأخير إلى يوم البعث ، وهو سبحانه يعرف أنه سيباشر الإفساد والغواية ، ويعرف أيضاً أن الكثير من الناس سيتبع غوايته : يعرف أيضاً أن عباد الله الصالحين هم بعيدون عن هذه الغواية وأثرها ، وأن إبليس ليس له أى نفوذ عليهم . وإنما النفوذ له على أولئكم الذين يقعون فى ضلاله

وغوايته) « وإن جهنم لموعدهم أجمعين . لها سبعة أبواب لكل باب منهم جزء مقسوم » (وهؤلاء الذين يتبعون غواية إبليس ويسلكون مسالك الشر فى حياتهم الدنيوية ، لهم مع إبليس جزاء جهنم فى الآخرة . وسيدخلونها جميعاً فى وقت واحد ، إذ لها أبواب عديدة يقسمون عليها ، بحيث تكون لكل باب مجموعة معينة منهم . وبذلك لا يتأخر أحدهم عن الآخر فى العقاب بنارها) « إن المتقين فى جنات وعيون .. ادخلوها بسلام آمنين . ونزعنا ما فى صدورهم من غل إخواناً ، على سرر متقابلين ، لا يمسهم فيها نصب وماهم منها بمخرجين »(أما عباد الله المخلصون ، وهم الذين لا يتبعون غواية إبليس ، فمصيرهم يوم البعث إلى الجنات بأشجارها وثمارها وعيون مائها . وعند دخولهم إليها يستقبلون من الملائكة بالتحية ، وبتأكيد اطمئنانهم وتأمينهم من المخاطر والمخاوف والقلق النفسى . وهم فيها إذ يحلونها : على قدم المساواة فى الاعتبار والمتعة والدرجة ، على سرر متقابلين . أى لا يتميز واحد منهم عن الآخر .

ولكى تكون حياتهم فيها حياة مساواة واطمئنان ، ينزع الله من قلوبهم الحقد والغل ، ويبعد حياتهم عن التعب وعن توقيت الإقامة فيها ، فإقامتهم إقامة أبدية . وعندما يكفل الله لهم سبحانه : المساواة فى المتعة والاعتبار ينزع من صدورهم الحقد والحسد ... ويبعد عنهم التعب وتوقيت المتعة : فإنه يهبهم فى الآخرة ما لم يتحقق لهم فى حياتهم الدنيوية . . ويهبهم السلام والأمان . إذ الخصومات والعداوات والتقاتل فى الدنيا يرجع فى الأكثر إلى سلب الاعتبار البشرى عن فريق من الناس دون فريق . . وإلى حقد مجموعة من الناس نحو مجموعة أخرى . . وإلى التعب وضيق الصدور بسبب الحياة والسعى فيها . ولذا كانت الحروب •• وكان القلق والاضطراب

من أخص خصائص الحياة الإنسانية فى الدنيا) « نبىء عبادى: أنى أنا الغفور الرحيم . وأن عذابى هو العذاب الأليم » (وأنت أيها الرسول — عليك صلوات الله — إذ علمت قصة الشر فى هذا العالم ووقفت على مصدر العبث والغواية ، فيه .. وعرفت العداوة بين الإنسان وإبليس ، وأدركت أن الوقاية من غواية إبليس هى فى اتباع هداية الله والإيمان به وحده : فأنذر عباد الله بأنه سبحانه غفور رحيم لمن تاب وآمن .. وأن عذابه عذاب شديد لمن استمرأ الضلال واستمر فى غواية إبليس وأعوانه) .

وفيما تعرض سورة الحجر هنا فى قصة خلق الإنسان والجان تقصر اختيار المخلوقات فى طاعة الله على نوعين فقط : نوع الإنسان .. ونوع الجان ، وفى شرح القصة لاختيار الجان تتحدث عن الملائكة ، وتدخل الملائكة فى مفهوم الجان كما لا تخرج إبليس بعد أن عصى ربه ، عن كونه واحداً من الملائكة. إذن من نوع المخلوقات المستترة الذى لا يرى ولا يشاهد . وإبليس فرد من أفراد الملائكة عصى ربه فقط . وشأنه كشأن الكافرين من الناس لا يخرج بكفره عن طبيعة الإنسان .

وإذا كانت طاعة الملائكة كانت طاعة إجماعية ، عدا إبليس ، فإن الملائكة إذن ليست فى حاجة إلى رسالة رسول الله من عند الله . فهم جميعاً قد اختبروا مباشرة من الله سبحانه : « وإذ قال ربك للملائكة إنى خالق بشراً من صلصال من حمأ مسنون . فإذا سويته ونفخت فيه من روحى فقعوا له ساجدين » .

ورسالة الرسول من قبل الله جل جلاله هى للإنسان . .

هى للناس جميعاً منذ آدم . .

إلى محمد بن عبد الله عليه السلام . . **(ما أصابك من حسنة فمن الله ،**

وما أصابك من سيئة فمن نفسك ، وأرسلناك للناس رسولا ، وكفى بالله شهيداً) (١) .

وإذا قيل بعد ذلك « إن رسولا ما أرسل إلى الإنس والجن معاً ، فمعناه أنه أرسل إلى الناس كافة : المعهود منهم ، وغير المعهود .. المعروفين لهمن قومه وغير المعروفين له من أقوام أخرى ، .. وليس معناه أنه أرسل للملائكة الذين هم شأنهم أنهم لايشاهدون ولايرون .

وشياطين الإنس ، وشياطين الجن هم جميعاً شياطين الناس : من عرف منهم .. ومن لم يعرف .

وَنَبِّئْهُمْ عَن ضَيْفِ إِبْرَٰهِيمَ (٥١) إِذْ دَخَلُوا۟ عَلَيْهِ فَقَالُوا۟ سَلَٰمًا قَالَ إِنَّا مِنكُمْ
وَجِلُونَ (٥٢) قَالُوا۟ لَا تَوْجَلْ إِنَّا نُبَشِّرُكَ بِغُلَٰمٍ عَلِيمٍ (٥٣) قَالَ أَبَشَّرْتُمُونِى عَلَىٰٓ
أَن مَّسَّنِىَ ٱلْكِبَرُ فَبِمَ تُبَشِّرُونَ (٥٤) قَالُوا۟ بَشَّرْنَٰكَ بِٱلْحَقِّ فَلَا تَكُن مِّنَ ٱلْقَٰنِطِينَ (٥٥)
قَالَ وَمَن يَقْنَطُ مِن رَّحْمَةِ رَبِّهِۦٓ إِلَّا ٱلضَّآلُّونَ (٥٦) قَالَ فَمَا خَطْبُكُمْ أَيُّهَا ٱلْمُرْسَلُونَ
(٥٧) قَالُوٓا۟ إِنَّآ أُرْسِلْنَآ إِلَىٰ قَوْمٍ مُّجْرِمِينَ (٥٨) إِلَّآ ءَالَ لُوطٍ إِنَّا لَمُنَجُّوهُمْ أَجْمَعِينَ
(٥٩) إِلَّا ٱمْرَأَتَهُۥ قَدَّرْنَآ إِنَّهَا لَمِنَ ٱلْغَٰبِرِينَ (٦٠)

ثم أخذت السورة تعرض لبعض أحداث التاريخ السابقة ، مع الرسل الماضين . فتقص ما وقع عن طريق الزلزال لقوم لوط وأصحاب الحجر — وهم قوم ثمود — من إبادة وتخريب لم تزل معالمه قائمة للمتتبع لآثار السابقين حتى الآن .

---

(١) النساء : ٧٩ .

وكذلك ما وقع لأصحاب الأيكة ، وهم جزء من أهل مدين :

تقص ذلك كي يكون من مستمع ، وتحذيراً فى الوقت نفسه لأهل مكة من جانب ، وكى يكون كذلك تثبيتاً للرسول محمد عليه السلام من جانب آخر . « ونبئهم عن ضيف إبراهيم . إذ دخلوا عليه فقالوا : سلاماً ، قال إنا منكم وجلون» (أى بلغ يامحمد– صلوات الله عليك– أهل مكة بضيوف إبراهيم عليه السلام من الملائكة ، مارين عليه ، وهم فى رسالتهم إلى لوط لإبلاغه إرادة الله فى إنجائه هو ومن معه من المؤمنين ، وفى إفناء المعارضين له من قومه المجرمين . فهؤلاء الرسل من الملائكة دخلوا على إبراهيم ، وبادروه بتحية الإسلام ، وهى إعلان السلام والأمان له ولمن معه . وهى تحية الرسالة الإلهية فى كل عهد ، ولكل رسول من البشر .

ومع إعلان التحية من الملائكة بدا على إبراهيم عليه السلام الخوف وعبر عن خوفه منهم. إذ هم غرباء غير معهودين له . وبالأخص عندما امتنعوا عن الأكل الذى قدمه إليهم . (**فما لبث أن جاء بعجل حنيذ . فلما رأى أيديهم لاتصل إليه نكرهم وأوجس منهم خيفة**) (١) «قالوا لاتوجل ، إنا نبشرك بغلام عليم» (ولكنهم ردوا عليه وطمأنوه وأعربوا له عن رسالتهم إياه. وهى رسالة بشارة بأنه سيولد له ولد ، يوهب العلم من ربه) «قال : أبشرتمونى على أن مسنى الكبر » (ووقعت البشارة من نفسه موقع الاستغراب . إذ أنه حسب العادة لايتصور إنسان فى سنه الكبير وشيخوخته الفانية مع امرأة له عجوز عاقر ، أن يولد له ولد، ولذا ضحكت امرأته تعجباً عندما علمت بالخبر (**وامرأته قائمة فضحكت**) (٢) «فبم تبشرون» (وبعد ما سمع البشارة

---

(١) هود : ٦٩ – ٧٠ .

(٢) هود : ٧١ .

لأول مرة أراد أن يتأكد منهم فسألهم ثانية) «قالوا بشرناك بالحق» (وأجابوه بأن بشارتهم إياه بغلام يولد له الآن هى تعبير عن حق من جانب المولى سبحانه. فلا شبهة فيه إطلاقاً) «فلا تكن من القانطين» (ولذا لاينبغى أن يداخله يأس ، أو شك ، فالله قادر على أن يخرق العادات بمعجزاته التى تقع فى ملكوته) « قال : ومن يقنط من رحمة ربه إلا الضالون» (وهو كرسول قوى الصلة بربه أكد : أنه لم يخامره يأس أو شك إطلاقاً . لأن الكافر وحده ، والضال البعيد عن هداية الله ، هو الذى ينتابه اليأس والشك فى قدرة الله سبحانه) « قال : فما خطبكم أيها المرسلون ؟ . قالوا : إنا أرسلنا إلى قوم مجرمين. إلا آل لوط إنا لمنجوهم أجمعين . إلا امرأته قدرنا إنها لمن الغابرين» (والآن بعد أن زال تعجب إبراهيم عليه السلام من البشارة ، وتأكد الحق لديه ، سأل الملائكة الرسل إليه عن مهمتهم بعد البشارة . وأجابوه هم بأنهم مرسلون إلى لوط لإبلاغه أمرين :

الأمر الأول : إبلاغه إرادة الله فى عقاب المعارضين والمنكرين لرسالته .

والأمر الثانى : إرادة الله أيضاً فى إنجائه وإنجاء أهله من الدمار الذى سيلحق مجتمع قومه ، عدا امرأته . لأنها لم تتخلص من تأثير الماضى عليها فى اعتقادها بالشرك والوثنية المادية ، فهى من الغابرين . والقرآن يطلق على الماديين الوثنيين الذين لايؤمنون بالله أو بوحدته فى الألوهية : غابرين ، بما قد يعرف الآن بالرجعيين . هذا إطلاق القرآن على الماديين الملحدين ، بينما هؤلاء فى عصرنا الحاضر يطلقون الرجعيين على المؤمنين بالله واليوم الآخر).

فَلَمَّا جَآءَ ءَالَ لُوطٍ ٱلْمُرْسَلُونَ (٦١) قَالَ إِنَّكُمْ قَوْمٌ مُّنكَرُونَ (٦٢) قَالُوا۟ بَلْ جِئْنَـٰكَ
بِمَا كَانُوا۟ فِيهِ يَمْتَرُونَ (٦٣) وَأَتَيْنَـٰكَ بِٱلْحَقِّ وَإِنَّا لَصَـٰدِقُونَ (٦٤) فَأَسْرِ بِأَهْلِكَ بِقِطْعٍ
مِّنَ ٱلَّيْلِ وَٱتَّبِعْ أَدْبَـٰرَهُمْ وَلَا يَلْتَفِتْ مِنكُمْ أَحَدٌ وَٱمْضُوا۟ حَيْثُ تُؤْمَرُونَ (٦٥)
وَقَضَيْنَآ إِلَيْهِ ذَٰلِكَ ٱلْأَمْرَ أَنَّ دَابِرَ هَـٰٓؤُلَآءِ مَقْطُوعٌ مُّصْبِحِينَ (٦٦) وَجَآءَ أَهْلُ
ٱلْمَدِينَةِ يَسْتَبْشِرُونَ (٦٧) قَالَ إِنَّ هَـٰٓؤُلَآءِ ضَيْفِى فَلَا تَفْضَحُونِ (٦٨) وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ
وَلَا تُخْزُونِ (٦٩) قَالُوٓا۟ أَوَلَمْ نَنْهَكَ عَنِ ٱلْعَـٰلَمِينَ (٧٠) قَالَ هَـٰٓؤُلَآءِ بَنَاتِىٓ إِن كُنتُمْ فَـٰعِلِينَ
(٧١) لَعَمْرُكَ إِنَّهُمْ لَفِى سَكْرَتِهِمْ يَعْمَهُونَ (٧٢) فَأَخَذَتْهُمُ ٱلصَّيْحَةُ مُشْرِقِينَ (٧٣) فَجَعَلْنَا
عَـٰلِيَهَا سَافِلَهَا وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِمْ حِجَارَةً مِّن سِجِّيلٍ (٧٤) إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَـَٔايَـٰتٍ لِّلْمُتَوَسِّمِينَ (٧٥)
وَإِنَّهَا لَبِسَبِيلٍ مُّقِيمٍ (٧٦) إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَـَٔايَةً لِّلْمُؤْمِنِينَ (٧٧)

« فلما جاء آل لوط المرسلون . قال : إنكم قوم منكرون . قالوا : بل جئناك بما كانوا فيه يمترن . وأتيناك بالحق ، وإنا لصادقون » (وذهبت الرسل الملائكة إلى لوط ، فأنكرهم ولم يتعرف عليهم . عندئذ أبلغوه برسالة الله له . وهى أنهم يحملون إليه الآن : أن عقاب الله نازل لامحالة بقومه المجرمين . وهم المعارضون لرسالته ، وعلى الأخص الزعماء فيهم . وهذا العقاب كان يشك فيه هؤلاء المجرمون من قبل وما أبلغوه إياه من نزول العقاب بمعارضيه هوحق وصدق) « فأسر بأهلك بقطع من الليل ، واتبع أدبارهم ، ولايلتفت منكم أحد ، وامضوا حيث تؤمرون . وقضينا إليه ذلك الأمر . أن دابر هؤلاء مقطوع مصبحين » (وأطلعوه على طريق النجاة له ولأهله ، وهم المؤمنون برسالته ، قبل الزلزال فى الصباح وعند شروق الشمس ، فيقضى على معارضيه والكافرين برسالته . وتوقيت وقوع الزلزال

كان أمراً مقضياً به من عند الله . وطريق نجاة لوط وأهله يتكون من ثلاث خطوات .

الخطوة الأولى : مغادرته المدينة مع بقاء وظلام الليل ، أى قبل الشروق بوقت كاف . .

الخطوة الثانية . أن يكون لوط فى مؤخرة الرحل ، يتبع أدبار أهله وظهورهم ، حيث تقودهم الملائكة إلى مكان النجاة .

الخطوة الثالثة : ألا يعود هو أو أهله بنظره إلى الخلف ، وإنما يستمر نظره فى سيره إلى الأمام نحو مكان الخلاص) « وجاء أهل المدينة يستبشرون. قال : إن هؤلاء ضيفى فلا تفضحون . واتقوا الله ولاتخزون . قالوا: أو لم ننهك عن العالمين . قال هؤلاء بناتى إن كنتم فاعلين . لعمرك إنهم لفى سكرتهم يعمهون » (وبين إبلاغ الملائكة الرسل لوطاً بعذاب قومه ، ووقوع ذلك العذاب جاء قومة إلى منزله ، والملائكة معه ، لعلهم يجدون فى هؤلاء الملائكة ما يسرهم ، جرياً على عاداتهم من التفتيش عن الذكور والاختلاط بهم اختلاطاً جنسياً ، بدلا من اختلاطهم بالنساء ، وقد نهاهم لوط فى رسالته عن هذا الشذوذ الجنسى ، إذ قال لهم — كما تحكى سورة الشعراء — **(أتأتون الذكران من العالمين . وتذرون ما خلق لكم ربكم من أزواجكم ، بل أنتم قوم عادون)** (١) . واستاء لوط من قدومهم ، ورجاهم فى أن يكون مسلكهم إزاء الملائكة مسلكا كريماً نحو ضيوف كرام ، فلا يعرضونه للفضيحة بمحاولة إظهار ما لهم من شذوذ ، وأن يراعوا هداية الله فيما يتصل بالسلوك الإنسانى الكريم ، متجنبين العورات

---

(١) الشعراء : ١٦٥ — ١٦٦ .

والنقائص .ولكن كشأنهم من لوط وجهوا إليهاللوم على نصحه هذا، وتدخله في شئون الآخرين ، مذكرين إياه : ما هم فاعلون ضده ، إن هو استمر في مثل هذا النصح إذ أنذروه من قبل (**قالوا لئن لم تنته يا لوط لتكونن من المخرجين**) (١) أنذروه بالنفى خارج البلاد،وكان النفى خارج البلاد —ولم يزل حتى الآن — العقاب الذى يؤثره الزعماء فى المجتمع المادى ضد خصومهم. ومع تذكيرهم إياه بالعقاب المفضل لديهم ، لم يزل هو مصراً على استمراره فى دعوتهم لتجنب اللواط ، وإيثار المسلك الطبيعى، وهو معاشرة النساء بدل الرجال . فعرض عليهم التوجه إلى بنات المدينة — وهن بناته من قبل الرعاية وإيثار مصلحتهن . لأن فى إيثارالبنات تحقيقاً لمصلحة المجتمع البشرى ككل . وناشدهم أن يحققوا هذه الرغبة المخلصة . ولكن غواية المادية أعمتهم عن رؤية الحق ، والمصلحة العامة وجعلتهم يتيهون فى ضلالها) « فأخذتهم الصيحة مشرقين » (وحسب قضاء الله بإفنائهم ، وبتقويض مجتمعهم : انفجر الزلزال فى الوقت المحدد . وهو وقت الإشراق فى الصباح) « فجعلنا عاليها سافلها ، وأمطرنا عليهم حجارة من سجيل» (وكانت آثارالزلزال مدمرة. . فتطايرت فى الهواء حجارة الأبنية التى أقيمت منها المساكن فى المدينة ، وعادت تسقط على الأرض مرة أخرى ، كأنها أمطار متواصلة . ولكنها أمطار من حجارة مرقمة ، وليست أمطاراً من ماء كما هو المعهود) « إن فى ذلك لآيات للمتوسمين . وإنها لبسبيل مقيم » (ولم تزل آثار هذا الدمار والخراب الذى حل بقرىلوط ومجتمعها باقية حتى الآن فى الطريق الذى يربط شبه الجزيرة العربية بسوريا والذين لديهم فراسة وخبرة بالآثار يمكنهم أن يروا أمارات هذا الدمار شاخصة على هذا الطريق وهو ذلك الطريق الذى كان يمر به

---

(١) الشعراء : ١٦٧ .

المكيون إلى الشام ، ومنها : فى رحلتى ، الشتاء والصيف . وقريتا «سدوم .. وعمراه » من قرى قوم لوط يرى آثارها حتى الآن المسافر فى القرى المجاورة للبحر الميت . « إن فى ذلك لآية للمؤمنين » (وهذا الخراب لقرى لوط الذى تشاهد آثاره للمتوسمين ، وأصحاب الفراسة اليوم : هو حجة للذين آمنوا برسالة الرسول محمد عليه السلام على أن الله سبحانه قادر على أن يحقق عقابه فى الدنيا لأولئكم الصادين عن سبيل الله ، والمعوقين لدعوة الرسول من المعارضين والكافرين . وهو حجة لهم كذلك على أنه جلت قدرته لايترك المؤمنين برسالته من غير مساندة ومؤازرة ... ولا يترك رسوله من غير أن ينصره نصراً مبيناً) .

﴿ وَإِن كَانَ أَصْحَٰبُ ٱلْأَيْكَةِ لَظَٰلِمِينَ ﴿٧٨﴾ فَٱنتَقَمْنَا مِنْهُمْ وَإِنَّهُمَا لَبِإِمَامٍ مُّبِينٍ ﴿٧٩﴾ ﴾

وعلى نحو ما وقع لقوم لوط من عذاب الله لهم بالتدمير وتخريب مساكنهم ، وقع كذلك من بعدهم لفريق من قوم شعيب : وهذا الفريق كان يسمى أصحاب الأيكة ، أى أصحاب الأشجار أو الغابة الكثيفة ، وكانت رسالة شعيب إلى قومه عامة ، هى تجنيبهم الانحراف فى استثمار رأس المال فى التجارة ، على نحو ماتقص سورة الشعراء ، مضمون هذه الرسالة ، فى قول الله تعالى : (**كذب أصحاب الأيكة المرسلين ، إذ قال لهم شعيب ألا تتقون ؟**) . إلى أن تقول : (**أوفوا الكيل ولاتكونوا من المخسرين . وزنوا بالقسطاس المستقيم ، ولا تبخسوا الناس أشياءهم ولا تعثوا فى الأرض مفسدين**)(١) وكان هذا الفريق يسكن داخل أهل مدين ، أو بجوارهم ، وما تشير إليه سورة الحجر هنا خاصاً بأصحاب الأيكة بعد

---

(١) الشعراء : ١٧٦ — ١٨٣

قوم لوط ، إنما هو إبراز : أن آثار التدمير والعذاب الذى وقع لأصحاب الأيكة ، لم تزل معلومة ومشاهدة ، على نحو ما لقوم لوط : « وإن كان أصحاب الأيكة لظالمين ، فانتقمنا منهم ، وإنهما لبإمام مبين » (أى وإن قرى قوم لوط ، وقرى أصحاب الأيكة كلا المجموعتين واضحة المعالم على الطريق ، وإنهما يشاهدان فى غير عسر أو خفاء لمن يمر بهذا الطريق . وهو الطريق من شبه الجزيرة إلى سوريا) .

* * *

وَلَقَدْ كَذَّبَ أَصْحَٰبُ ٱلْحِجْرِ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿٨٠﴾ وَءَاتَيْنَٰهُمْ ءَايَٰتِنَا فَكَانُوا۟ عَنْهَا مُعْرِضِينَ ﴿٨١﴾ وَكَانُوا۟ يَنْحِتُونَ مِنَ ٱلْجِبَالِ بُيُوتًا ءَامِنِينَ ﴿٨٢﴾ فَأَخَذَتْهُمُ ٱلصَّيْحَةُ مُصْبِحِينَ ﴿٨٣﴾ فَمَآ أَغْنَىٰ عَنْهُم مَّا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ ﴿٨٤﴾

وهذا شاهد آخر من تاريخ المجتمعات السابقة . وهو شاهد أصحاب الحجر ، أو قوم صالح ، وهم ثمود . والحجر : واد بين المدينة فى الجزيرة العربية ، والشام : « ولقد كذب أصحاب الحجر المرسلين » (وأصحاب الحجر ، أو ثمود : كذبت رسولهم صالح . ولم يرسل لهم غيره . ولكن اعتبر تكذيبهم له تكذيباً للرسل جميعاً ، لأن رسالة الله واحدة وتقوم على الدعوة إلى وحدة الألوهية ، وتخليص البشرية من الوثنية المادية) « وآتيناهم آياتنا ، فكانوا عنها معرضين » (والآيات التى جاءتهم فى رسالة صالح هى دعوتهم إلى طاعة الله وإحقاقهم العدل بين الناس جميعاً فى ثمود ، فيما ترعاه أنعامهم . فلا يكون هناك قوى أو زعيم يسمح لأنعامه بالرعى فى الكلأ العام ، والشرب من الآبار التى هى للجميع ... وشعيب لايسمح لأنعامه بالاقتراب من الرعى ، أو الماء . وإنما الجميع يجب أن تكون لهم نفس الحقوق فيما هو مباح وعام لخير الكبير والصغير ، والقوى والضعيف .

وقد طلب صالح من الكثرة الغالبة فى قومه : ألا تتبع الزعماء المفسدين المتحكمين فى نعم الله ، ولا أن يسلكوا بها طريقاً آخر غير طريق الإصلاح : (**فاتقوا الله وأطيعون . ولا تطيعوا أمر المسرفين . الذين يفسدون فى الأرض ولا يصلحون**) (١) . « وكانوا ينحتون من الجبال بيوتاً آمنين : فأخذتهم الصيحة مصبحين . فما أغنى عنهم ما كانوا يكسبون » (ورغم أن مساكن ثمود أو أصحاب الحجر كانت من الحجارة التى ينحتونها من الجبال ، وكانت من أجل ذلك وقاية آمنة لهم من كثير من الأحداث الطبيعية ، إلا أنها لم تبق متماسكة أمام عقاب الله . فقد قوضها الزلزال فى ساعة الصباح ولم يجد أمام تقويضها : مابذلوه من جهد فى إقامتها وترسيخ قواعدها) .

* * *

---

(١) الشعراء : ١٥٠ – ١٥٢ .

وَمَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَآ إِلَّا بِٱلْحَقِّ ۗ وَإِنَّ ٱلسَّاعَةَ
لَءَاتِيَةٌ ۖ فَٱصْفَحِ ٱلصَّفْحَ ٱلْجَمِيلَ (٨٥) إِنَّ رَبَّكَ هُوَ ٱلْخَلَّٰقُ ٱلْعَلِيمُ (٨٦) وَلَقَدْ
ءَاتَيْنَٰكَ سَبْعًا مِّنَ ٱلْمَثَانِى وَٱلْقُرْءَانَ ٱلْعَظِيمَ (٨٧) لَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَىٰ
مَا مَتَّعْنَا بِهِۦٓ أَزْوَٰجًا مِّنْهُمْ وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ وَٱخْفِضْ جَنَاحَكَ لِلْمُؤْمِنِينَ (٨٨) وَقُلْ
إِنِّىٓ أَنَا ٱلنَّذِيرُ ٱلْمُبِينُ (٨٩) كَمَآ أَنزَلْنَا عَلَى ٱلْمُقْتَسِمِينَ (٩٠) ٱلَّذِينَ جَعَلُوا۟ ٱلْقُرْءَانَ
عِضِينَ (٩١) فَوَرَبِّكَ لَنَسْـَٔلَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ (٩٢) عَمَّا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ (٩٣) فَٱصْدَعْ
بِمَا تُؤْمَرُ وَأَعْرِضْ عَنِ ٱلْمُشْرِكِينَ (٩٤) إِنَّا كَفَيْنَٰكَ ٱلْمُسْتَهْزِءِينَ (٩٥)
ٱلَّذِينَ يَجْعَلُونَ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ ۚ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ (٩٦) وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّكَ يَضِيقُ
صَدْرُكَ بِمَا يَقُولُونَ (٩٧) فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَكُن مِّنَ ٱلسَّٰجِدِينَ (٩٨) وَٱعْبُدْ
رَبَّكَ حَتَّىٰ يَأْتِيَكَ ٱلْيَقِينُ (٩٩)

وتعود السورة فى نهايتها مرة أخرى إلى القرآن ، لتضيف إلى القرآن بجانب هدايته وعونه على تحول الناس من الظلمات إلى النور بإذن ربهم — كما ذكرت فى البداية — أنه منة كبرى على الرسول عليه السلام من المولى جل جلاله . وإزاء هذا الفضل العظيم يجب على الرسول صلوات الله عليه : ألا ينظر إلى ما فى أيدى مختلف الناس من جاه الحياة ، ومالها وعصبيتها : كما يجب أن يتحمل إيذاء هؤلاء المعارضين من مشركى مكة ، فى الوقت الذى يجب أن يلين فيه فى معاملة المؤمنين به ، حتى يقوى شأنهم كأمة . وفى الوقت ذاته لا يخشى أعداؤه وأعداء المؤمنين : فى تربصهم ، ومكايدهم : فالله حافظ له وللمؤمنين . ومن هنا تجب موالاة الدعوة كما يجب إبعاد كل عامل

نفسي يحول دون الاستمرار فيها ، حتى يتحقق نصر الله للمؤمنين ، وهزيمته لأعداء الإيمان من الكافرين المعارضين : « وما خلقنا السموات والأرض ومابينهما إلا بالحق ، وإن الساعة لآتية ، فاصفح الصفح الجميل » (وإذ نطلب منك الآن — أيها الرسول صلوات الله عليك — أن تصفح صفحاً جميلا عن المعارضين لرسالتك من أهل مكة ، وهم : زعماؤها وكبراؤها : فإنا نوقفك على حقيقتين هامتين لاطمئنانك فى شأن ما تدعو إليه .

الحقيقة الأولى : أن هذا الوجود كله من سمواته وأرضه ، وما بين السموات والأرض مخلوق لله سبحانه وتعالى . فقدرة الله واضحة . وهى لذلك لا تقصر عن مساندتك فى نجاح دعوتك ، وهزيمة أعدائك .

والحقيقة الثانية : أن يوم الجزاء آت حتما ، وعقابهم مقرر فيه . ولذا سينالون جزاءهم على جريمتهم فى المعارضة أو محاولة إيذائك وإيذاء المؤمنين ، بدنياً ، ونفسياً على السواء .

وإذا كانوا سينالون الجزاء الخاص بجريمتهم ، فالصفح عنهم سيساعدك أنت على أداء رسالتك ، وعلى الاستمرار فى دعوتك . لأنك عندئذ لا تشغل نفسياً بهم ، ولا تقف كثيراً عند ما يدبرون ، أو يقررون فأنت إذن منطلق فى أداء الرسالة التى نيطت بك ، ويطلب القرآن هنا من الرسول عليه السلام أن يكون صفحه عن معارضيه صفحاً جميلا — أى لا يشعرهم فيه بما يستفزهم ، أو يهددهم أو يسيء إليهم فى صورة ما — لأن هذا النوع من الصفح هو الذى لا يزيد فى إثارتهم ومعارضتهم .

والرسول عليه السلام والمؤمنون قلة يومئذ معه ، فى حاجة الآن إلى عدم تحد واضح منهم ، حتى لا يتجمد نشاطهم : فالرسول والمؤمنون معه

قلة . ومن آمن به حتى هذه اللحظة من الأتباع ،وليس من الزعماء بين المكيين ففوق أن الصفح الجميل يحمل سمة إنسانية ، فهو أيضاً أمر منهجى يوصل إلى الغاية ، فى وقت لايكون الطريق معبداً تماماً نحو الغاية) « إن ربك هو الخلاق العليم . ولقد آتيناك سبعاً من المثانى ، والقرآن العظيم » (وفوق أنه سبحانه خالق للوجود كله ، فهو مبدع فيما يخلق ، عليم ، بما سيكون ويقع . فلا يقع فى ملكه إلا ما يعلمه ويريده : ولا يقع فيه : ما فيه نشاز ، أو اضطراب . وقد حباك أنت أيها الرسول برسالة القرآن العظيم . وسورة الفاتحة التى تتكرر كل صلاة لها شأنها من بين سوره العديدة . لأنها تحدد ما يجب على المؤمن فى وقوفه بين يدى مولاه ، من دعاء يؤمنه عدم الزلل ، والسير فى هداية الله ، فالسبع المثانى هى سورة الفاتحة ، وسميت كذلك لأنها تثنى وتكرر فى كل صلاة) « لا تمدن عينيك إلى ما متعنا به أزواجاً منهم ، ولا تحزن عليهم ، واخفض جناحك للمؤمنين ؛ وقل إنى أنا النذير المبين ، كما أنزلنا على المقتسمين . الذين جعلوا القرآن عضين » (ولذا : ننصحك أيها الرسول — صلوات الله عليك إزاء هذه النعمة الكبرى — بما يأتى :

أولا : ألا تتطلع إلى دنيا فى أيدى الآخرين من أصناف الناس ، من جاه ، أو مال ، أو زعامة . فما أعطيته أنت من الله : أعظم بكثير مما فى أيدى الناس .

ثانياً : لا تحزن على عدم إيمان المعارضين ، وإن كانوا من أشد أقربائك . لأن الله لم يوفقهم إلى الإيمان :

ثالثاً : كن متواضعاً مع المؤمنين ، فتشعرهم باعتبارهم الإنسانى . فكانوا لضعفهم فى المجتمع المكى السابق أتباعاً ، وليسوا أسياداً على أنفسهم . وبذلك

يدركون : أن الإسلام دين مساواة فى الاعتبار البشرى ، وليس دين استعلاء ، كما كان عليه أمر الدين لدى المشركين . فكانت هناك طبقية : شياطين الجن أولا .. ثم الكهان ثانياً .. ثم الأتباع ثالثاً .

رابعاً : أعلن أن رسالتك لهؤلاء المكيين تحمل إليهم الإنذار بعذاب الله على كفرهم ومعارضتهم ، وأنه سينزل عقاب الله عليهم كما سينزل ويصيب أولئك اليهود من قريظة والنضير ، الذين جعلوا القرآن مجزأ وعضين — وفرقوا فيه بين ماهو حق وباطل واعتبروا بذلك مقسمين لمنزلته واعتباره ، إذ قالوا فى شأنه : هذا حق نؤمن به .. وهذا باطل نكفر به) «فوربك لنسألنهم أجمعين. عما كانوا يعملون » (وليس عليك وراء إنذارهم — فيما يخصهم — شيء آخر لأن الله سبحانه هو الذى سيسألهم ويجازيهم على جرمهم ولايترك منهم أحداً .. سيسألهم عن أعمالهم حتى تكون مكشوفة لهم ، وحتى يتضح لهم استحقاقهم عذابه) . «فاصدع بما تؤمر ، وأعرض عن المشركين. إنا كفيناك المستهزئين. الذين يجعلون مع الله إلهاً آخر ، فسوف يعلمون» (والآن قد حان الوقت الذى تصرح بدعوتك للمكيين وخلافهم وتجهر بها على ملأ من الناس ، فى غير خوف ولاخشية من أحد . فأنت — صلوات الله عليك — مأذون لك الآن بإعلان الدعوة ، ولك الوقاية الكافية من ربك ، ولا يعنيك شأن هؤلاء الوثنيين الماديين ، ولا مايثيرونه من سخرية واستهزاء ، إزاءك وإزاء دعوتك . فهم مشركون مع الله إلهاً آخر . والمشركون فى الألوهية لايقفون عند القيم العليا فى حياة الإنسان ، ولا يثبتون فى معاملة بعضهم بعضاً عند مبدأ أو هدف إنسانى . وإنما بقدر ماتكون مصلحتهم يكون سعيهم ويكون معبودهم . وسيرون مصيرهم فى الآخرة ، وهو مصير العابثين الفاسدين) « ولقد نعلم أنك يضيق صدرك بما يقولون. فسبح بحمد ربك وكن

من الساجدين . واعبد ربك حتى يأتيك اليقين » (وإذا كان من نصح الله للرسول عليه السلام : أن يصفح صفحاً جميلاً عن الكافرين المعارضين لدعوته فى بداية أمرها ، وأن يعرض عن سخريتهم واستهزائهم ، فهو سبحانه يعلم أن رسوله عليه صلوات الله ، بشر ، وأن صدره قد يضيق أحياناً بما يسخرون منه ، وبما يثيرونه من استهزاء وأكاذيب . ولذا يرشده مولاه الآن : أن يعلن حمده لربه على تلك المنة الكبرى .. منة القرآن ، وأن يستمر فى طاعته والخضوع لما ينصحه به ، ويرشده إليه ، وأن يظل فى عبادته وأداء رسالته حتى يطلع فجر اليقين بنصر ه على أعدائه ، وبتقويض مالهؤلاء الأعداء من مجتمع .. وما لهم من قوة وزعامة . وهذا وعد لرسول الله بالنصر .

وبما جاء فى ختام هذه السورة من النصائح والإرشادات لرسول الله عليه الصلاة والسلام من الصفح الجميل .. والإعراض عن الدعوة لرسالته : يبدو أن السورة كانت فى عهد مبكر من عهود الوحى المكى . ولكن ليس العهد الأولى على أية حال . وهو عهد ضعف المؤمنين ، والذى التزم فيه الرسول صلوات الله عليه بالسرية فى الدعوة ، وفى الاتصال بأصحابه عليهم رضوان الله) .

* * *

كتب للمؤلف

١ ـ الفكر الاسلامى الحديث وصلته بالاستعمار الغربى	الطبعة الثامنة
٢ ـ تهافت الفكر المادى التاريخى بين النظرية والتطبيق	الطبعة الثانية
٣ ـ الاسلام فى حل مشاكل المجتمعات الاسلامية المعاصرة	الطبعة الثانية
٤ ـ خمس رسائل للشباب المسلم المعاصر	الطبعة الثانية
٥ ـ الجانب الالهى من التفكير الاسلامى	الطبعة الثامنة
٦ ـ الفكر الاسلامى فى تطوره	الطبعة الثامنة
٧ ـ الاسلام فى حياة المسلم	الطبعة الخامسة
٨ ـ رأى الدين بين السائل والمجيب جزآن معا ـ مزيدة ومنقحة	الطبعة الثالثة
٩ ـ نحو القرآن	الطبعة الأولى
١٠ـ القرآن والمجتمع	الطبعة الأولى
١١ ـ من مفاهيم القرآن ـ فى العقيدة والسلوك	الطبعة الأولى
١٢ ـ منهج القرآن ـ فى تطوير المجتمع	الطبعة الأولى
١٣ ـ المجتمع الحضارى وتحدياته من توجيه القرآن الكريم	الطبعةالأولى
١٤ـ القرآن .. فى مواجهة المادية	
١٥ـ الاسلام فى الواقع الايديولوجى المعاصر	الطبعة الثامنة
١٦ ـ طبقية المجتمع الأوروبى وانعكاس آثارها على المجتمع الاسلامى	الطبعة الثانية
١٧ ـ نظام التأمين فى هدى الاسلام وضرورة المجتمع المعاصر	الطبعة الأولى
١٨ ـ الاسلام ونظم الحكم المعاصرة	الطبعة الثانية
١٩ ـ غيوم تحجب الاسلام	الطبعة الأولى
٢٠ ـ الدين والدولة من توجيه القرآن الكريم	الطبعة الأولى
٢١ ـ الدين والحضارة الانسانية	الطبعة الثالثة
٢٢ ـ عقبات فى طريق الاسلام	
٢٣ ـ الاسلام والادارة ـ الحكومة ـ	
٢٤ ـ الاسلام والاقتصاد	
٢٥ ـ الاسلام دعوة وليس ثورة	
٢٦ ـ الاسلام واتجاه المرأة المسلمة المعاصرة	
٢٧ ـ مستقبل الاسلام والقرن الخامس عشر الهجرى	
٢٨ ـ الاسلام والرق	
٢٩ ـ مشكلات المجتمعات الاسلامية والفراغ من الاسلام	

للمؤلف : فى التفسير الموضوعى للقرآن الكريم

اولا : تفسير السور المكية :

١ ــ سورة الأنعام	٢ ــ سورة الأعراف
٣ ــ سورة يونس	٤ ــ سورة هــود
٥ ــ سورة يوسف	٦ ــ سورة الرعد
٧ ــ سورة ابراهيم	٨ ــ سورة الحجر
٩ ــ سورة النحل	١٠ــ سورة الاسراء
١١ــ سورة الكهف	١٢ــ سورة مريم
١٣ــ سورة طه	١٤ــ سورة الأنبياء
١٥ــ سورة المؤمنون	١٦ــ سورة الفرقان
١٧ــ سورة الشعراء	١٨ ــ سورة النمل
١٩ــ سورة القصص	٢٠ــ سورة العنكبوت
٢١ــ سورة الصافات	٢٢ــ سورة الجن
٢٣ ــ جزء عم	

رقم الايداع ٤٥١١/٧٦
الرقم الدولى ٨ ــ ٣٢ ــ ٧٢٣٦ ــ ٩٧٧

تطلب من : مكتبة وهبه ١٤ شارع الجمهورية ــ عابدين ــ القاهرة
تليفون : ٩٣٧٤٧٠

دار غريب للطبـــاعة
١٢ شارع نوبار (لاظوغلى ـ القاهرة)
تليفون : ٢٢٠٧٩